اللّغة العربية و البحث العلمي

"البراقماتي" في العلوم الإنسانية

د. عبد الفتاح التريكي

في حين أن عدد الباحثين في العلوم الإنسانية تطوّر بنسق كبير، يلاحظ أن استعمال اللّغة العربية كأداة للبحث يبقى محدودا للغاية. إن نسبة الإنتاج العلمي الناطق بالعربية يكاد يكون منعدما مقارنة باللّغات الأخرى، و باللغة الإنقليزية خاصّة.

وبطبيعة الحال فإن هذا الوضع يرجع إلى المكانة التي تتبوؤها اللغة العربية في السياسات و التشريعات التعليمية لا بالمدارس ما قبل الجامعي و بمؤسسات التعليم العالي فحسب و لكن أيضا بمؤسسات الإعلام و الثقافة و المجتمع المدني بصفة عامة. هذا الوضع أدّى إلى قناعة شبه ثابته لدى الباحثين أن اللغة العربية غير صالحة للإنتاج العلمي و أنها غير مواكبة لتطوراته الحديثة.

والغريب في الأمر أن معظم البحوث الميدانية في مجالات العلوم الإنسانية تنجز من منظور "براقماتي" إعتمادا على اللغة الأم إلا أن الباحث يبادر بترجمة المادّة الحاصلة و التي تكون عادة خليطا بين العربية و العامية، إلى لغة أجنبية قصد استثمارها و تجميعها ثمّ نشرها في مجلاّت علمية مرموقة عادة ما تكون ناطقة باللّغة الإنقليزية.

و في الحقيقة فإن الباحث المهتم بشأن اللغة العربية و المنفتح على لغات أجنبية أخرى إنّما يلاحظ أن عملية البحث تنبني على منهجيات و تقنيات منطقية تكاد تكون مجرّدة من اللّغة ومن الإنتماء الحضاري، و بالتالي فإن اعتماد اللغة العربية في العملية البحثية و الإنتاج الفكري لا يصبح ممكنا فحسب بل مفضلا خاصّة بالنسبة للباحث العربي.

في إطار هذه المداخلة، أقترح أن أقدّم بإيجاز ماهية العملية العلمية في ميدان العلوم الأنسانية (القسم الأول) ثم بالتعريف بالنهج "البراقماتي" مستأنسا في ذلك بنظرية "شارلز ساندرز بيرس" و أهميتها بالنسبة لإنتاج المعرفة (القسم الثاني) ثمّ أبين كيف أن اللغة العربية قادرة على مواكبة التطوّرات الفكرية في مجال العلوم الإنسانية و بالتالي على دعم عملية الإنتاج المعرفي (القسم الثالث) في الأخير أقدم مثالا تطبيقيا (القسم الرابع).

I. نموذج البحث العلم

يمكن التعرف على عملية البحث العلمي من خلال النموذج التالي:

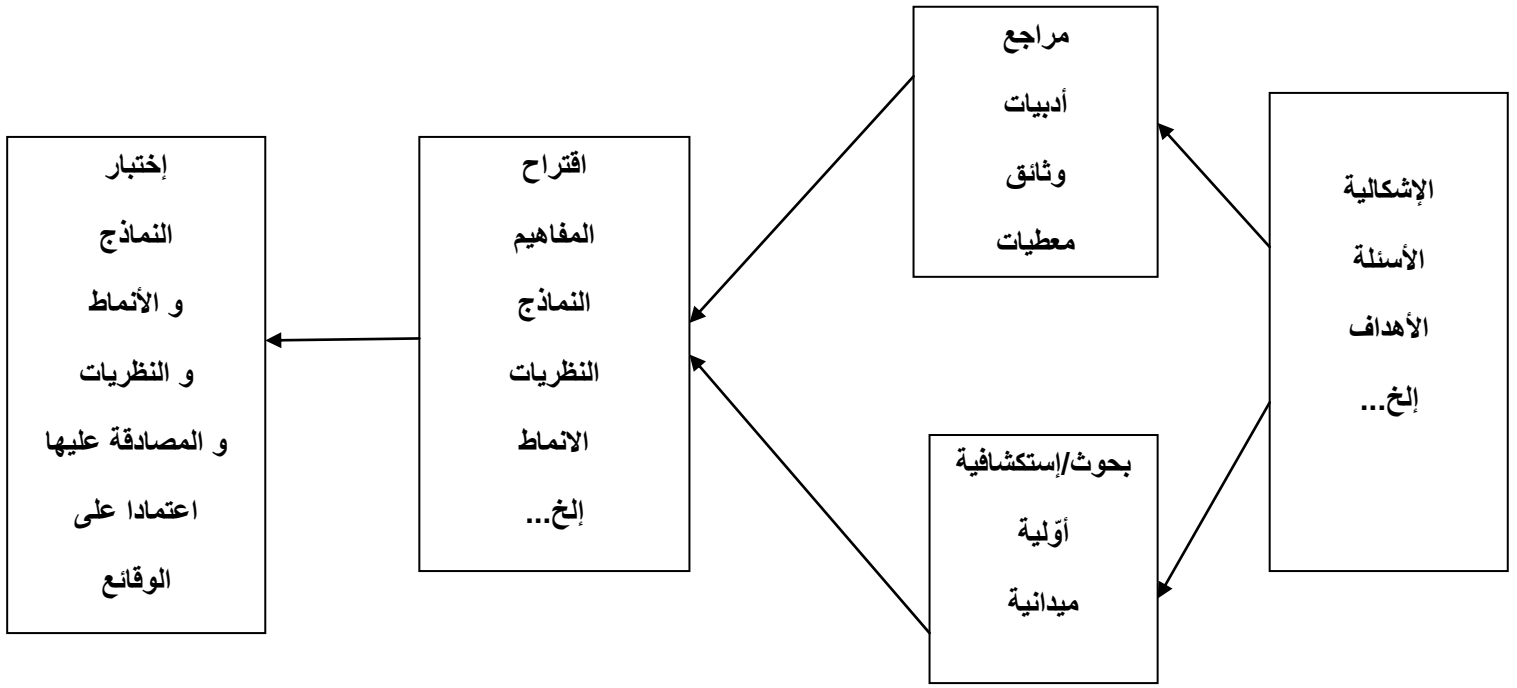

نموذج البحث العلمي في ميادين العلوم الإنسانية

يظهر هذا النموذج نسق البحث في ميدان العلوم الإنسانية اعتمادا على تقاليد علمية مختلفة و مكملة لبعضها البعض بطريقة تستغل فيها شتى المقاربات الإبستولوجية و الفلسفية و تثمن فيها نظريات و رؤى عديدة نذكر منها النّهج البنيوي و النهج الوضعي و كذلك الطّرق النوعية و الكمية. هذه النظريات و الرؤى تبدو في ظاهرها متناقضة لكنها متكاملة بفضل التوفيق بين مختلف التقاليد العلمية بطريقة تساعد على تراكم المادة المعرفية.

و في حين أن النظرية البنيوية تحبذ نهج الإسقراء(induction) وتعتمد أساسا على البحوث النوعية (qualitative research)، تفضل النظريات الوضعية نهج الإستنتاج (déduction) و تعتمد أساسا على البحوث الكمية (quantitative research)، و في نهاية القرن الماضي ، ظهرت نظرية "شارلز ساندرز بيرس" فتميزت بالتأليف بين البحوث النوعية و الكمية و استقطاب النهجين المذكورين صلب نهج ثالث يدعى الإستنباط (abduction).

1) **الإستقراء** :هي عملية تعتمد على جمع ما توفر من المعطيات المتعلقة بموضوع البحث و يا حبّذا لو جمعت هذه المعطيات بكيفية شمولية و ملاحظتها بدقة حتى يتمكن الباحث من فهم توجهاتها والتقاط تكراريتها بطريقة تمكنه من اقتراح نمط أو نموذج يستوعب خصائصها. والمثال المتداول في أدبيات البحث هو أن الشخص يلاحظ عددا كبيرا من الغربان في ظروف مختلفة، وبعد أن يتبين له أن جميع تلك التي لو لوحظت حتى الآن من السود، يختتم أن جميع الغربان سوداء. فهذا الاستقراء مشروعا تماما من الناحية المنطقية لكنه لا يضمن أن الغراب المقبل لن يكون ورديّ اللون.

2) **الأستنتا**ج: عوضا عن الاعتماد على الحقائق بكيفية شاملة، يبادر الباحث باستغلال النظريات و القوانين المتوفرة لديه (بقطع النظر على أهميتها) و اقتراح الفرضيات بطريقة منطقية ثم باختبارها(testing) و باخضاعها للبرهنة و الإثبات و النظر في جميع التفسيرات الممكنة (بغض النظر عن معناها). والمثل المتداول في أدبيات البحث هو الإنسان ذائق للموت، سقراط إنسان ،لذا فإن سقراط ذائق للموت.

هكذا يمكن رسم هذين النهج بطريقة مبسطة كما يلي:

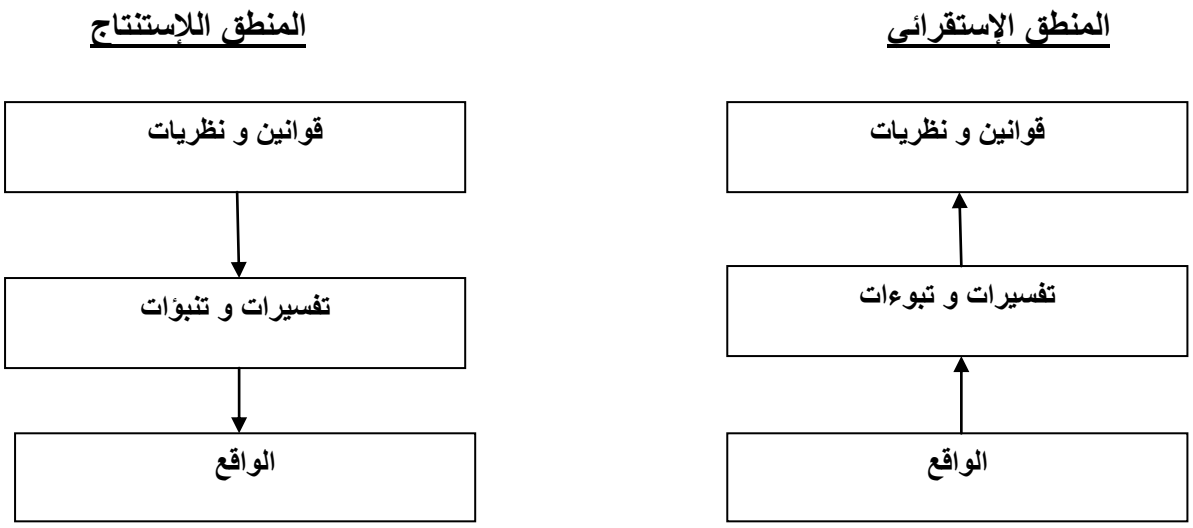

مقارنة بين المنطق الإستقرائي و الإستنتاجي

نرى هنا أن القوانين و النظريات هي منطلق المنطق الإستنتاجي في أنها تمثل نقطة الوصول لها و العكس بالعكس.

3) **الإستنباط** (abduction): يعرف الإستنباط على أنه نموذج منطقي يعتمد على عملية الذهاب و الإيّاب بين المفاهيم و الواقع، بحيث أن القوانين و النظريات يمكن أن تكون نقطة الانطلاق مثلما يمكن أن تكون نقطة الوصول مثلما هو الشأن بالنسبة للتفسيرات و التنبؤات. و بالتالي فإن الباحث في هذه الحالة يدخل في عملية تأليفية بين المفاهيم و الواقع و مجابهة النظرية بالواقع.

و يعرّف هذا المنهج العلمي في تفسير و فهم عملية اكتساب المعرفة بالبراقماتية بحكم تأكيده على أهمية الواقع الملموس في اكتساب المعرفة من ناحية، و على أهمية النظريات أيضا لأن محاولة فهم الواقع لا يمكن أن ينطلق من العدم. فعملية المعرفة هي بمثابة تراكم لتصورات مرتبطة ببعضها البعض في شكل سلسلة لا متناهية من المعاني. وفي هذا السياق، فإن عملية المعرفة تتراكم بفضل الإرتكاز على المعرفة المكتسبة من جهة و على المعطيات على الأرض من جهة أخرى، فيدخل النوعين من المعرفة في علاقة جدلية تفضي حتما إلى معرفة جديدة. لنرى فيما يلي ماهية البراقماتية و لنحاول التعرف على جذورها الفكرية و الفلسفية.

II. البراقماتية

تتبنى البراقماتية النهجين الإستقرائي و الإستنتاجي و تدمجهما في نهج ثالث يسمى بالنهج الإستنباطي بطريقة تنتج صورا جديدة يسعى من خلالها الباحث تنظيم صورا أخرى. و تبدأ العملية البحثية بما يسمّى نقاط الإنطلاق الواعدة (promising starting points)

فيما يلي نتعرض إلى الجذور الفكرية و الفلسفية لهذه النظرية ثم نعرف بما يسمى "نقاط الإنطلاق الواعدة" ثم نؤكد على تأرجح هذا النهج بين النظرية و التطبيق لننتهي بالحديث حول تثمين نتائج البحث العلمي و استغلال فوائدها بالنسبة للعمليين .

<u>البراقماتية : نظام ثلاثي القوائم</u>

من الناحية العلمية ترجع جذور البراقماتية إلى النظرية السيميائية (semiotics) ترتكز هذه النظرية على نسق تكاملي ثلاثي القوائم، كما يظهر في الشكل التالي:

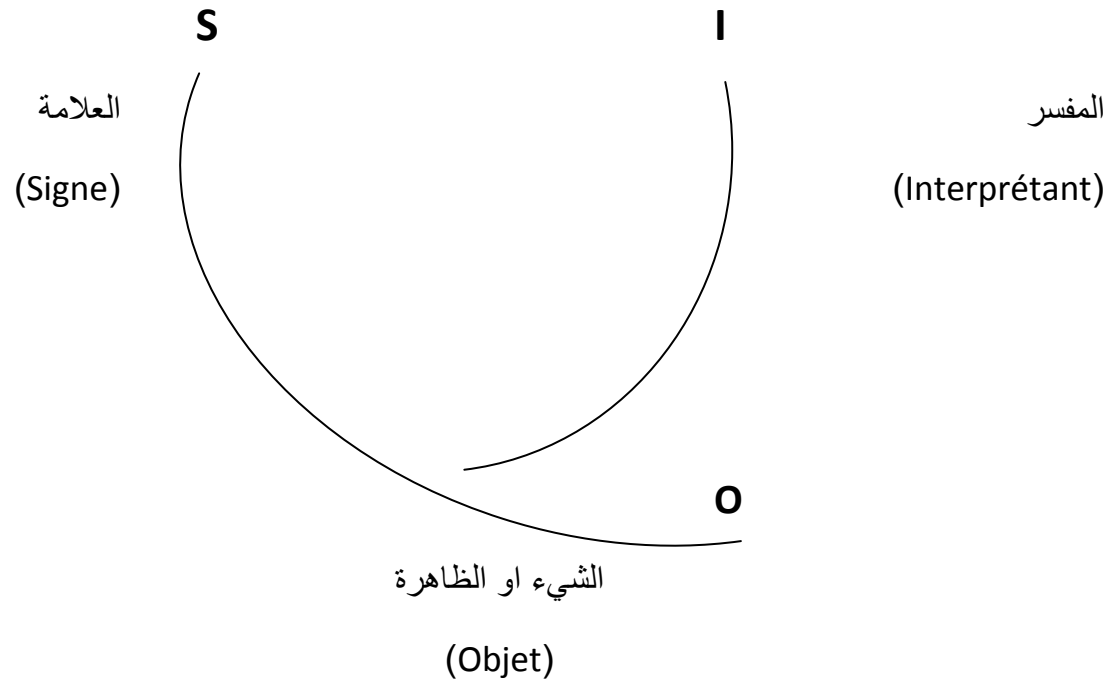

- الشيء (objet): لا يكتسي أي معنى في حدّ ذاته ولا يتحمل أي تأويل،
- العلامة (signe) : هو الرمز الذي تنتجه الثقافة و اللغة و الذي تحكمه قوانين و قواعد فذة.
- المفسر(Interprétant): يرجع إلى أطر فكرية و مخزون ثقافي حضاري تتبوأ اللغة فيه مكانة متميزة.

و من الناحية الفلسفية، فإن النسق السيميائي الثلاثي القوائم يرتبط بنسق ثلاثي أخر يرتكز على الأولية (Firstness) (1) و الثانوية (Secondness)(2) و الثالثية (Thirdness) (3)

-1: ترجع إلى الظاهرة كما هي مستقلة عن كل شيء و بغض النظر عن أي شيء أخر فهي الكائن أو الجوهر.

-2: ترجع إلى ما يجري مقارنة إلى شيء أخر، فهو الوجود أو الطبيعة.

-3: ترجع إلى ما يجري من خلال ربط أول بثان ليكمل العلاقة بين عنصرين وهو بإختصار عملية الإنتاج المعرفي: الأعتقاد و الفكر و الثقافة.

و على هذا الأساس، فإن عملية البحث العلمي لا تقتصر على تحليل ما هو موجود كما هو، و إنما على إبتكار و إبداع لوقائع جديدة، شانها شأن الإبداع عند الفنان و المهندس. و حسب بيرس فإن الدّور الأساسي للإنسان هو إنتاج إعتقادات و تصوّرات، و في ذلك يتناقض مع " ديكارت" الذي يعتبر أن الإنسان يتحتم عليه استعمال الشك للتوصل إلى المعرفة ، فهو مجبر للسعي وراء اختبار فرضياته.

البراقماتية و نقاط الإنطلاق الواعدة:

حسب بيرس إن البراقماتية تعني تحديد وضعيات تتسم بالضبابية و الإهتداء إلى فك رموزها و إن تعذر على الباحث تفسير هذه الوضعية اعتمادا على النظريات المتوترة لديه، فسيبادر باستنباط نمط أو نموذج جديد يمكنه من إلقاء الضوء على تلك الضبابية، و بالتالي من إعطاء معنى للظاهرة المبهمة.

و قد تأخذ هذه الوضعيات التي تتسم بالضبابية عدة أشكال نذكر من بينها: صور غير واضحة/، وضعيات غير مكتملة،ملاحظات غير مرتقبة أو وقائع مذهلة (Surprising facts)، و تمثل كل هذه الأشكال نقاط انطلاق واعدة للفهم المركز للظواهر و لاستنباط تفسيرات جديدة و نظريات محدثة، و تعتبر مذهلة لصعوبة فهمها اعتمادا على النظريات المتوفرة، لذا لا بد من الإبداع و الابتكار حتى يقدم الباحث توضيحات حول الأدلة الغير مكتملة، أو الأحداث الغير متكررة إلخ...

البراقماتية و التأرجح بين النظرية و الواقع

بصفة عامة،اعتمادا على النهج الاستنباطي، فإن عملية البحث إنما هي إدراج الباحث في نسق منطقي يتأرجح بين النظرية و التطبيق و بين المفاهيم المجردة و الواقع الملموس.

إن هذا النسق يضمن، حسب بيرس، خلق مادّة جديدة متأتية من تقريب المجرّد بالملموس و مجابهة المفاهيم بالواقع على الأرض.

و تأخذ هذه المعرفة شكل شبكات من المفاهيم و بذلك يمكن التمييز بين الخبير و المبتدئ على أساس قدرتهما أو عدم قدرتهما على ربط الوقائع بالعلامات ثم استنباط وقاع و علامات جديدة و بالتالي فإن

البراقماتية سوف تسخر بالنظريات و الوقائع في سبيل إنتاج المعرفة و تثمينها كما أنها سوف تسلح الباحث بأدوات تمكنه مقارنة المفاهيم النظرية بالمعطيات الملموسة.

إن عملية الذهاب و الإياب بين النظرية و التطبيق من شأنها أن تفضي إلى ديناميكية أخذ و عطاء بين المجرد و الملموس و إلى توطيد العلاقة بين المفاهيم المجردة و الواقع الملموس.

البراقماتية و البعد العملي للبحث العلمي

من بين خصائص النظرية البراقماتية هي الفوائد العملية لنتائج البحث.

إن البراقماتية مدخل يمكن من المرور من أدوات انتقائية إلى أدوات إبداعية و استغلال البحوث الأساسية لأهداف تطبيقية حيث أن النتائج تثبت صلاحياتها بالنسبة للعاملين في الحقل الميداني (رجال أعمال ، مربين...) و ذلك بفضل ترجمة الأفكار المبتكرة إلى قيمات عملية يقع إدراجها في الواقع المعاش.

و بهذا تصبح المفاهيم و الأنماط و النظريات وسائل تطبيقية تساعد صانعي القرار على تركيز اختياراتهم و أدوات عملية لحلّ المشاكل و قد تأثر بيرس من هذه الناحية بعالم الاجتماع" لوين" الذي أكد على أهمية النظرية في البحث الميداني و عرف بنشره لتلك الثقافة البحثية من خلال تطبيق مبادئ البحث العملي(recherche action) لتغيير العادات الاستهلاكية السيئة و تجذير عادات صحية حسنة. و في أقصى الحالات فإن البحث الذي لا يفضي إلى فائدة ملموسة تسهم في تغيير الأوضاع بشكل إيجابي لا خير فيه.

III. مكانة اللغة في عملية البحث

السؤال الذي يطرح هنا هو :أين اللغة من كل هذا؟ هل يمكن القول أن المفاهيم و اللغة المعتمدة تكون محايدة إلى حدّ تشبيها بالأدوات التجريبية للعلوم الطبيعية و الفيزياء و الكيمياء إلخ... و التي تستعمل للقيام بالتجارب و التثبت من الفرضيات بكيفية موضوعية فتكون بذلك مستقلة عن المحتوى العلمي موضع البحث؟

و في حقيقة الأمر فإنه من الصعب الإجابة عن هذه السؤال لأن هذه الإجابة ترتبط بالباحث نفسه و مرجعيته الفكرية. فالمدرسة الوضعية تنادي إلى و تأكد على موضوعية الباحث و على حيادية المطلقة في فهم و تحليل المعطيات.

أمّا المدرسة البنائية ، فهي لا تقر بهذه الحيادية، بل بالعكس فهي ترى أن فرض هذا النوع من " الشروط" هو إجحاف في حق البحوث النوعية؛ أكثر من هذا ، فهذا النهج البحثي يتباهى بعدم انصياعه لشرط الموضوعية و يؤكد على أهمية الذاتية (Subjectivism).

إن اكتشاف المعطيات و طرح السؤال حولها، و محاولة تفسيرها و استخراج المعاني منها و تنظيمها و اقتراح الأجوبة المؤقتة حول العلاقات التي تربط بين مكوناتها إنما يرتكز على التصورات و الإنطباعات. فالتعمق في الميادين و التصاق الباحث بالواقع يعتبر ميزة من ميزات البحث الكيفي لأن

التغلغل في الواقع المعاش للأفراد و المؤسسات (حالات عملية، مقابلات معمقة، إلخ...) يقضي إلى الفهم المعمق للمواضيع المطروحة، و بالتالي إلى اقتراح حلول ملائمة لها.

إن البحث في ميدان العلوم الإنسانية إنما يهتم بمسائل ترتبط بالواقع الموثق(معلومات، معطيات مادية و الكترونية) و بسلوك الأفراد و الجماعات داخل المؤسسات. فاللغة تساعد على النفاذ إلى ذلك الواقع و بالتالي فإن الباحث سوف يعتمد على زاده المعرفي ليستوعب ذلك الواقع فيحاول فهمه و تفسيره و تحليله، و هذا يستحسن انجازه باللغة الأم، لا باللغة الأجنبية.

و يرى بعض المفكرون أن الكتاب يترجمون عندما يكتبون (أو عندما يتكلمون)، أي أنهم بحكم تأثرهم باللغات الأخرى من ناحية، و بحكم تفكيرهم في الطريقة التي يستقبل بها الأخر أفكارهم، فهذا من شأنه أن يحد من سعة خيالهم و أفق أفكارهم.

إن الرجوع إلى أدبيات الميدان الذي يهتم به الباحث و استغلاله شيء ضروري، لكن التشبث باللغة التي كتبت به (و التي عادة ما تكون باللغة الإنقليزية) ليس حتمي، و بالتالي فإنه من الجدير بنا أن نبادر بترجمة المادة المشتقاة و التي عادة ما تأخذ شكل التلاخيص ثم استعمالها كركيزة نظرية للعمل الميداني اللاحق.

وفي الواقع ، فإن الباحث عادة ما يبادر بتلخيص الاستعراض الأدبي(literature review) باللغة الإنقليزية (بصعوبة بالغة)، ثم جمع الوقائع على الميدان و تحريرها باللغة الأم (اللغة العربية) ثم ترجمتها إلى اللغة الإنقليزية (بصعوبة أكبر).

و في حين أننا نثمن مجهودات الباحثين المتفتحين على اللغات الأجنبية (إذ نعرف أهمية هذا التفتح بالنسبة لدعم الحضارات و تعزيز مقوماتها) فإننا نرى أنه لا بد من الحفاظ على اللغة العربية و دعمها من خلال البحث الميداني قصد تعزيز أفاقها النظرية و إثراء مجالاتها الفكرية.

إن اللغة التي لا تتطور عن طريق البحث مهددة بالتهرئة و الجمود أما اللغة التي يغزوها التفكير و التحميص، فهي قابلة للتطور و الثراء و التجديد فاللغة مثل الأرض تجود على من يبذل الجهد في إحيائها، فإن خدماتهاجادت، و إن تركتها خابت.

لذا يتعين علينا أن نعطي اللغة العربية القيمة التي تستحقها و أن نسعى إلى تطويرها من خلال إستعمالها المتزايد للبحث في ميادين العلوم الإنسانية .

المراجع:

- Sébastien point, « le codage à visée théorique »,Recherche et applications en Marketing, Volume 21,May,2006,61-78.

- Abdelfattah Triki, Epistémologie et Méthodologie de la Recherche, Deuxième Edition ,2010.

- Clive seale ed., Researching Society and Culture, Sage publications, 2004.